٥٤ العِزّ إِزَارِى ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى

عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما

عن رسول الله ﷺ قال :

(قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ :

العِزّ إِزَارِى ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى

فَمَنْ نَازَعَنِى بِشَىءٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ) (١)

الحق سبحانه له مطلق الكبرياء والعز ، فالعز إزاره ، والكبرياء رداؤه، وليس لبشر أو مخلوق أن ينازعه هذا ، وإلا أصبح مستحق لعذاب الله؛ لأنه نازع الله ما يتصف به سبحانه من صفات الجلال التى يتمجد الله على خَلْقه .

وقد أدرك عباد الله المتقون هذا ، فسلَّموا لله العز والكبرياء له وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، أولئك هم عباد الله الذين ذكرهم الله فى سورة الفرقان واصفاً إياهم بقوله سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا.. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد ــ حديث ٥٥٢) بهذا اللفظ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٤ / ٢٠٢٣) بلفظ : ((العز إزاره والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني نازعته)) .

فهـذه هى الصفة الأولى من صفات عباد الله ، فالمِشْيَةُ التى يمشيها الإنـسان هى تعبير عن الشخصية ، وعما يستكِنّ فيها من مشاعر ، فالنفس الـسَّوية المطمئنة الجادة المقتصدة تظهر صفاتها هذه على مِشْية صاحبها ، فيمشى مِشْية سَوِيَّة ، فيها وقار وسكينة ، وفيها جِدٌّ وعزيمة وقوة .

فعباد الرحمن يمشون على الأرض مِشْية سهلة هيِّنة ، ليس فيها تكلُّف، ولا تصنُّع ، وليس فيها خُيلاء ولا كِبْر ، ولا إمالة خدٍّ عن عباد الله ، وليس فيها ترهُّل أو تماوت . فهم يمشون برفق ولِينٍ ، وسكينة وتواضع ووقار ، بعيداً عن الاختيال والتكثُّر والغطرسة .

فالرحمن الذين هم عباده ينهى عن التكبُّر على الناس ، فيقول :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان]

وتَصْعير الخدِّ هو أنْ يلوى الإنسانُ عنقه عن الناس تكبُّراً واختيالاً ، والمرح هو الفرح ببطر ، فيفرح ظناً منه أن هذه ذاتية من عنده ، وينسى مَنْ أنعم عليه بهذه النعم ، فيأخذ نعمه ويعصيه بها ، فالله نهانا أنْ نفرح الفرحَ الذى يُنسينا ذكر الله وشكره على نعمه ، فالفرح فى ذاته ليس ممنوعاً ، ولكن فَرَح البطر هو المذموم المكروه .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الإسراء]

والإنسان لا يمشى فى الأرض مَرَحاً وخُيلاء إلا حينما يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده ، فتأخذه الخيلاء بما يبلغه من : ثراء ، أو سلطان ، أو قوة ، أو جمال ، فلو تذكَّر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حَوْل الله وقوته لَخفَّف من خُيلائه ، ومشى على الأرض هَوْناً ، لا تَيْهاً ، ولا مرحاً .

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً للفرح ، والخيلاء والتكبُّر على الناس والمرح المذموم فى قصة قارون ، إذ قال فى حقه :

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص]

فقد آتاه الله من الأموال والكنوز الشىء الكثير ، حتى أن مفاتيح خزائنه بلغ وزنُها حدّاً أنْ كانت العُصْبة والجماعة من الرجال الأشداء يشقُّ عليهم حَمْلُها، ﴿ لَتَنُوٓأُ (١) بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ ولكنه تكبّرَ ، ونسب هذا المال والغِنَى إلى نفسه ناسياً الله عز وجل ، فردّ على نصيحة قومه ، بقوله :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ . . ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص]

إنها قَوْلة المغرور المتكبّر المطموس البصيرة الذى ينسى مصدر

(١) نـــاء الـــرجل بالحمل : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة . قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ . . ﴿٧٦﴾ ﴾ [القـــصص] أى : تثقل عليهم وتجهدهم ، وهذا كناية عن كثرة كنوز قارون .[القاموس القويم ٢ / ٢٩٠]

النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ، ويُعميه الثراء ؛ لذلك خرج يستعرض أمام الناس زينته وأمواله وعبيده فى صورة يتجلى فيها البَغْى والتطاول والإعراض عن النصح والتعالى عن العِظَة ، والإصرار على الفساد ، والاعتزاز بالمال .

يقول تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص]

فها هو قارون يخرج على قومه مُخْتالاً مُتكبّراً مزهواً بنفسه وبزينته فتطير لها قلوبُ فريقٍ من قومه ، ويتمنوْن لأنفسهم مثل ما أُوتِى قارون ، وذلك لضعف نفوسهم ، فوقفوا أمام فتنة الحياة الدنيا وقفةَ المأخوذ المبهور المتهافت المتهاوى .

فكانت عاقبة هذا المغرور المختال الفَرِح بنفسه الجاحد لنعمة الله أنْ خسف اللهُ به وبداره الأرضَ ، فابتلعتْه الأرض هو وكنوزه وأمواله وقصره.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص]

لذلك كان من أُولى صفات عباد الله أنهم : ﴿ يَمْشُون عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا.. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان]

فأوّل شىء يحقق توازن المجتمع أننا جميعاً عند الله سواء ، وكلُّنا عبيده ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نسب ، فالجميع عند الله كأسنان

المشْط ، لا فَرْقَ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

إنْ تفاوتَتْ أقدارنا فى الحياة فهو تفاوت ظاهرى شكلى لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة ، فتقول مثلاً : هذا غنى وهذا فقير .

وأغلب الناس يهتمون بهذه الناحية من الاختلاف ، ويَدَعُون غيرها من النواحى الأخرى ، وهذا قصور فى الفكر ، بل يجب النظر إلى الجوانب الأخرى فى حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة فى النفس الإنسانية .

وما دام المجتمع الإيمانى على هذه الصورة فلا يصح أنْ يرفع أحدٌ رأسه فى المجتمع على الآخرين تكبُّراً واختيالاً ، ليعطى لنفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : فخراً واختيالاً ، أو بَطَراً وتعالياً ؛ لأن الذى يفخر بشىء ويختال به ويظن أنه أفضل من غيره ، يجب أنْ يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به ، بمعنى أنْ يكون ذاتياً فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أنْ جعل كلَّ ما يمكن أنْ يفتخر به الإنسان هِبةً له ، وليست أصيلة فيه.

فكل أمور الإنسان ، بدايةً من إيجاده من عدم هى هبة يمكن أنْ تُستردَّ فى يوم من الأيام ، ويجب أنْ يتفكَّر الإنسان فى أنَّ حاله يتغير ، فلا المالُ يبقى ولا الصحةُ أو القوة تدوم ، فكيف الحال إذا تكبرْتَ بمالك ، ثم رآك الناس فقيراً أو تعاليتَ بقوتك ، ثم رآك الناس عليلاً .

إذن : فالتواضع والأدب أَلْيَق بك ، والتكبُّر والتعالى لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف ينازع العبدُ الحقَّ سبحانه صفةً من صفاته ؟ وقد نهانا الحق عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى .

ومَنْ أحب أنْ يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى الصفوف المتراصَّة فى الصلاة عندما يُنادَى بها ، فترى الجميع سواسية : الغنى والفقير ، الرئيس والمرءوس .

الكلُّ راكع أو ساجد ، الكلُّ خاضع لله ، متذلل له ، الكلُّ عبد لله بعد أنْ خلعوا أقدارهم عندما خلعوا نعالهم ، ففى ساحة الرحمن يتساوى الجميع ، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح فى مناسك الحج .

فالرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة فى أن يراه مرءوسه وهو حليق الرأس ، ولا يستر بدنه إلا قطعتا ملابس ، قد تغيّرَ وجهه ، خاضعاً لله مُتذلّلاً له ، مُتضرِّعاً لله ؛ لأن الكلَّ يعلم أن الخضوع والتذلل لله هو عَيْن العزة والشرف والكرامة .

لذلك يوبِّخ رب العزة ذلك المتكبر المختال فى مشيته ، قائلاً له :

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء]

فعلى أى شيء تمشى هكذا ؟! فأنت بهذا التكبُّر والتعالى لن تخرق الأرض ، بل ستظل الأرض صُلْبة تتحداك رغم أنك مخلوق منها ، وأنها تُداس بالأقدام ، وكذلك مهما ارتفعتْ قامتُك وشمختْ أنفك ، فلن تبلغَ ارتفاعَ وطول الجبال .

ونلاحظ أن الله ذكر الأرض والجبال وكلاهما جمادات وهما أقلُّ منزلةً

ومكانةً من الإنسان ، فالجماد الذى هو أدنى الأجناس له مكانة ومنزلة فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله وفى ركنها الحجر الأسعد الذى سنَّ لنا رسول الله تقبيله وهو حجر وعليه يتزاحم الناس ويتشرفون بتقبيله والتمسُّح به .

فالعبودية لله تعالى تسرى فى الكون كله ؛ لذلك لا يحقُّ لك أيها الإنسان أنْ تسير بمرح أو خُيلاء أو تَعَالٍ .

تواضعْ أيها الإنسان ، وتخلَّق بما أمر الله به ، وكُنْ واحداً من عباد الرحمن هؤلاء ، الذين هم أولياء الله حقاً ، الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، أى : بوقَار ولِينٍ وسكون وطمأنينة ، سِرْ دون افتعال عظمة ، أو إعجاب بالنفس ، أو تكبُّر واختيال ، حينئذ ستشعر أنك تسير فى انسجام مع الكون كله من حولك : بهوائه ، وأرضه ، وسمائه ، وأشجاره ، ومياهه ، كلها تسير فى عبودية لله عز وجل .

فبأىِّ شىء يختال الإنسان : بقوته ، بصحته ، بِغناه ، بجماله ، بأولاده، بسلطانه ، بِسَطْوته ؟

كل هذا موهوب من الله ، وهبه الله له ؛ ليسير به فى الناس بالحق والعدل والخير ، فالمتكبِّر المختال إنسان مضروب على قلبه الحجاب ، لأنه لم يلتفت إلى ربه ، فهو يظن أنه أفضل من كل الناس ، ولكنه لو استحضر كبرياء ربه وعظمته لاستحى أنْ يكون مُتكبراً .

وليس معنى ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا.. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان] ، أنهم يمشون مُتماوتين مُنكّسى الرؤوس ، مُتداعى الأركان ، متهاوى البنيان ، كما يفهم بعض الناس ممَّنْ يريدون إظهار التقوى والصلاح .

فهذا رسول الله ﷺ كان إذا مشى تكفأ تكفيأ ، وكان أسرعَ الناس مِشْية، وأحسنها وأسْكَنها .

قال أبو هريرة : ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول الله ﷺ ، كأن الشمسَ تجرى فى وجهه ، وما رأيتُ أحداً أسرعَ فى مِشْيته من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تُطْوى له ، وإنَّا لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مُكترث [1] .

وقال زوج ابنته على بن أبى طالب وابن عمه : كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفيأ ، كأنما ينحطُّ فى صَبَب [2] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان]

والقصد هو : الإقبال على الحدث ، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين ، يعنى: توسُّطاً واعتدالاً ، هذا فى المشى .

﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] أى : اخفضه ، وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأذن .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢ / ٣٥٠ ، ٣٨٠) ، وكذا الترمذى فى سننه (٣٦٤٨) كلاهما من طريق ابن لهيعة بسنده إلى أبى هريرة ، قال الترمذى : حديث غريب.

(٢) خرجه أحمد فى مسنده (١ / ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٣٤) ، وأخرجه عبد الله بن أحمد ابن حنبل فى زوائده على مسند أبيه (١ / ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥١) ، وكذا الترمذى فى سننه (٣٦٣٧) وقال : " هذا حديث حسن صحيح " وفى بعض ألفاظ الحديث " من صخر " . ومعنى " فى صبب " أى : فى موضع منحدر . قال ابن عباس : أراد به أنه قوىّ البدن ، فإذا مشى فكأنه يمشى على صدر قدميه من القوة .

لكـــن ، لماذا جمع السياقُ القرآنى بين المشى والصوت ؟ قالوا : لأن للإنسان مطلوباتٍ فى الحياة ، هذه المطلوبات يصل إليها ، إما بالمشى - فأنا لا أمـــشى إلى مكان إلا إذا كان لى فيه مصلحةٌ وغرض - وإما بالصوت ، فإذا لم أستطع المشى إليه ناديْتهُ بصوتى .

إذن : إما أنْ تذهب إلى مطلوبك . أو أنْ تستدعيَه إليك . والقصد أى : التوسُّـــط فى الأمر مطلوب فى كل شىء ؛ لأن كل شىء له طرفان لا بُدَّ أن يكون فى أحدهما مبالغة ، وفى الآخر تقصير ؛ لذلك قالوا : كِلاَ طرفى قَصْد الأمور ذميم .

واعلم أن هذه الأرض التى تختال عليها وتتكبَّر قد سخرها الله لك لتستطيع أنْ تمشى عليها وتتنقل فيها من جهة لأخرى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ... ۝٢٢ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : (فِرَٰشًا) يُوحى بأنه أعدَّ الأرضَ إعداداً مريحاً للبشر ، كما تفرش على الأرض شيئاً ، تجلس عليه أو تنام عليه ، فيكون فراشاً يُريحك ، ونحن نتوارث الأرضَ جيلاً بعد جيل ، وهى تصلح لحياتنا جميعاً ، ومنذ أنْ خُلِقَتْ الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للإنسان .

فالحق سبحانه قد أعدَّها لنا إعداد يتناسب مع كل جيل ، فكل جيل رُفِّه فى العيش بسبب تقدُّم الحضارة كشف الله من العلم ما يُطوع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ويقول سبحانه : ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ ﴾[الذاريات]

أى : هيَّأناها تهيئاً يريح الساكنين فيها ، مثل المهد الذى نُعِده للطفل ؛ لأن الطفل لا يدرك أىّ شىء ، فلا بُدَّ أنْ نُمهِّد له فراشه حتى يكون مريحاً له ، فلا يُنغِّص شىء عليه نومته .

فمعنى المهاد ، أى : نُمهِّد له الحياةَ التى ليس فيها مُكدِّرات لحركته ، كذلك الأرض ، كلّ الناس بالنسبة لها كالأطفال ، فمهَّد الله لهم الأرض ، ولذلك تجدها مريحة فى النوم ، وصالحة له فى أىّ مكان ،حتى فى الجبل تجده يُسوِّى الرمل وينام عليه ، ولهذ يقولون : فراش المتعَب وَطِىءٌ ، فتجد المتعَب ينام حتى على الحصى ، وينام مِلْء جفونه .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال فى آية أخرى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ ﴾ [الزخرف]

والمهد هو فراش الطفل ، ولا بُدَّ أنْ يكون مريحاً ؛ لأن الطفل إذا وجد فى الفراش شيئاً يُتعبه ، فإنه لا يملك الإمكانات التى تجعله يريحه ؛ ولذلك تمهد الأم لطفلها مكانَ نومه لينامَ نوماً مريحاً ، ولكن الذى يُمهِّد الأرض لكل خَلْقه هو الله سبحانه وتعالى ، يجعلها فراشاً لعباده ، مثلما نفعل نحن مع أطفالنا .

وفوق هذا ، جعل لنا سبحانه فى هذه الأرض سُبلاً وطرقاً ؛ لأن المصالح تقتضى أنْ ينتقل الناسُ من مكان إقامتهم إلى أماكن أخرى فيها مصالحهم ، فيحملون البضائعَ والسلع من بلاد إلى أخرى والعكس ، فالله تعالى جعل لنا هذه السبل لعلنا نهتدى فى السير إلى أغراضنا وأهدافنا .

أو : أن الناس حين يرونَ هذه السُبل التى خلقها الله ويسَّرها لهم ، وما بَثَّ فى الأرض من خير ونِعَمٍ ، قد يحنُّون ويعتبرون بعظمة هذا الخالق ، فيؤمنون ويهتدون .

ويقول سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك]

فالحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه، فهى مُسخَّرة له ، يسعى ويضرب فيها ، ويأكل من رزق الله الناتج منها، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيها من خيرات ومنافع مما ملّكنا الله له ، فهو الغنىُّ سبحانه ، المالك لكلّ شىء ، وما ملّكنا إلا من باطن مُلْكه .

فما فى السماء والأرض مِلْك لله ، لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائـــل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ويُملّكنا إياها ؟ نقول : ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً ، وستظل مِلْكاً لله ، وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملّكها الله لغيره أنْ يتغيّرَ لك ويحرمك منها ؟ فأمنُكَ فى أنْ يظل المُلْك لله وحده ؛ لأنه ربك ومتوليك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكر فى منفعتك .

فالأرض تؤدى مهمتها التى خلقها الله لها ، وجعلها مُسخَّرة مُذلَّلة للإنسان ليسعى فيها ، ويضرب فى الأرض بالحرْث والبذْر والانتقال ، لتعطيه من خيراتها ، فعلامَ يتكبّر الإنسان ويختال على الأرض ؟

وأيضاً ، تلك الجبال التى يشمخُ الإنسان بأنفه ، لعله يبلغها طُولاً ، ونسى قولَ الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً

﴿ ۝٣٢ ﴾ [الإسراء]

هذه الجبال يقول الحق سبحانه عنها : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ ﴾ [الحشر]

فهذا الجبل الضخم لو نزل عليه القرآنُ الكريم لَصَار خاشعاً هامداً ، وتصدّع وتفتّتت ذراته من خشية الله تعالى ، لماذا ؟ لأنه ما دام سينزل عليه القرآن الكريم ، سيصبح مُكلَّفاً ، وتكليفه لن يتركه هكذا ، بل كل ذرة تُسبِّح لعملها ، فلابد أنْ يتفتت ، ولكنه ليس مُكلَّفاً .

فالذى يحدث أنه يندكُّ ويهبط ؛ لأنه غير مُكلَّف ؛ لأنه هو والسماء والأرض أخذوا هذه المهمة منذ البداية ، لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ ﴾[الأحزاب]

فهذه السماوات والأرض والجبال التى نختال عليها ونتكبَّر رفضتْ أن تكون مُخيَّرة ، وطلبت أنْ تكون مُسيرة لأمر الله ، يُسخرها كما يشاء ويريد ، فكانت الأرضُ والجبال أعلمَ من الإنسان الظّلوم الجَهول ، فرفضت تحمُّل الأمانة ؛ لأنها خافتْ أنْ لا تفى بها عند الأداء .

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمُّل الأمانة .

وهذا يعنى أن الأمانة سوف تكون عُرْضة للتصرُّف والاختيار ، ولا

كائنَ فى الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء .

لقد أعلنت الكائناتُ قولها ، فأبيْنَ تحمُّل الأمانة ، وكأنها قالت : إنَّا يا ربنا نريد أنْ نكون مُسخَّرين مقهورين لا اختيارَ لنا ؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدى مهمته كما أرادها الله ، ما عدا الإنسان ، أى : أنه الذى قَبل بما له من عقل وتفكير أنْ يتحمل أمانة الاختيار ، وبلسان حاله ، أو بلسان مقاله قال : إننى قادر على تحمُّل الأمانة ؛ لأنى أستطيع الاختيار بين البدائل .

وهنا نُذكّر الإنسانَ : إنك قد تكون قوياً لحظة التحمّل ، ولكن ماذا عن حالك وقت الأداء ؟

لذلك قال الله عن الإنسان :

﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

لقد ظلم الإنسانُ نفسَه ، حيث حمل الأمانة ولم يَفِ بها ، فلذلك فهو ظلوم ، وهو جَهُول لأنه قدَّر وقت التحمّل ، ولم يُقدر وقت الأداء ، ضَمِنها ، ثم خالف ما عاهد نفسه على أدائه .

فإذا كان الإنسان ظَلُوماً لنفسه ، جَهُولاً بحقيقة الأمر ، فلماذا يتكبَّر ويختال ويتبختر فَرِحاً بنفسه ، يمشى فى الأرض مَرحاً ، وهو فى غَدٍ فى باطنها مقبور .